

## رحيله

صاحب الألحان "الضاربة" وآخر العنقود المؤسّس  
إلياس الرحباني:  
المسكون بالموت والنوتة والإبداع

كورونا يواصل اختطاف المبدعين الكبار في لبنان. آخر ضحاياه ثالث الرحابنة، الملحن والموسيقي الذي أسس مدرسة مستقلة في الفن اللبناني. بغيا به تطوى صفحة الجيل الأول المؤسس من العائلة الرحبانية. مسيرة متنوّعة متشعبة خاضها الراحل، شاقا لنفسه دربا مختلفة ومغايرة عن اخويه

في كل الحوارات التلفزيونية التي كان الياس الرحباني (1938 - 2021) يجريها، ترتسم الابتسامة على وجه المشاهد وهو يتفرج عليه. الموسيقي الذي ترك حوالي 6000 لحن على حد تعبيره، تمتع - الى جانب غزواته الإبداعية - بحس فكاهة عال وظرافة وكياسة وشفافية ورقة انسانية وحساسية الفنان المنشغل بكل مصائب الكوكب... آخر العنقود وثالث الرحابنة الأول الذي شكّل موضوع الموت احد هواجسه لسنوات، استسلم الشهر الماضي امام وباء كورونا، طاويا مسيرة اشكالية بقدر ما هي غزيرة ومتشعبة. لعل الظلم الأول الذي وقع على الياس الرحباني انه كان اصغر الرحابنة. سلّطت على مسيرته عدسة النقد والاختصاصيين، بل جُلد بسوطهم احيانا. اعتبر بعضهم ان قيمة ومستوى اعماله لا تصل الى المرتبة التي وصلها العملاقان مع فيروز.

كثيرون ينسون او يتناسون ان الياس الرحباني لم يشكل يوما امتدادا للمدرسة الرحبانية، خصوصا مع فارق جيل عمري بينه وبين اخويه، اذ يصغرهما بحوالي 14 عاما. اضعف ان التوقيت كان الكلمة السحرية في مسيرة الاخوين. اذ انهما جاءا بكل بساطة في الزمن والمكان المناسبين، حين كان لبنان ككيان سياسي يضع شكله وملامحه، فيما توليا هما على نحتهم فؤودجا (خياليا) فنيا وموسيقيا في الوجدان الجمعي، خصوصا في ظل طغيان الذائقة المصرية على الفن في حقبة الخمسينات والستينات. من هنا ايضا تنبع خصوصية وهالة الاخوين



الموسيقار الراحل الياس الرحباني.

تيمّم وهو لما يبلغ  
الخامسة من العمر،  
فكافأته السماء بابوين  
هما عاصي ومنصور

رحباني التي اكتسبها عبر الزمن من خلال صوت فيروز، الى جانب الخصوصية الإبداعية لاعمالهما الموسيقية والغنائية والمسرحية. مع ذلك، شق الياس الرحباني طريقه على حدة، متفردا، طارقا ابوابا اخرى، فنجح في جعل الحانه تدخل الوجدان والذاكرة الجمعيين. فمن لا يتذكر موسيقى تتر مسلسل "ديالا" (1977 - تأليف مروان

## نقطة على السطر

## وطنٌ ينبعث من الأغنيات

لم يحظ الياس الرحباني بالجنّازة الوطنية الكبرى التي تليق به في زمن الوباء والانهيّارات. شاهد ملك على الزمن الجميل، يمضي في هذه الايام الحالكة التي يشوبها الخوف والجوع والمرض والانغلاق والقلق على المستقبل. لكن الشعب اللبناني الذي يواجه تجربة عبور الصحراء، لا يستطيع ان يمنع نفسه من النظر الى الافق، والرهان على المستقبل، على الفجر الآتي لا محالة. وهذه المقاومة لا يمكن ان تقوم وتتماسك وتترسخ وتنتصر، الا بالتمسك بالاساسيات التي صنعت هوية هذا البلد. الهوية الثقافية التي تقف وراء خصوصية لبنان، هذا "الاستثناء العربي"، والمختبر المشرع على كل الافكار والمشاريع والتيارات والمدارس الفلسفية.

التمايز والابتكار والتجديد والابداع، تلك هي الهوية اللبنانية التي جبلها المعلمون الكبار بوحيتهم، وتركوا عليها بصماتهم. والياس واحد من هؤلاء من خلال الارث الموسيقي الذي تركه، جامعا بين عوالم ومراجع ومناهل، تبدأ في الثقافة الشعبية اللبنانية، ولا تنتهي عند اكبر المدارس العالمية. هذه هي الهوية التي تعند بخصوصياتها وانفتاحها، لا بانعزاليتها وانغلاقها. هذه هي الثقافة اللبنانية، قوامها التجذر في التربة العربية فيما الاغصان والفروع تتمدد. ترتفع في كل السماوات الثقافية العالمية، لتتنفس وتزهر وتثمر في سياق الثقافة العربية، والحضارة الانسانية.

قد تبدو هذه الكلمات غريبة في هذا الزمن، ناشرة، وخارجة على السياق، ومتناقضة مع الواقع. هذا صحيح في الشكل، لكن تحت الرماد تكمن نار الارادة ونداء الحياة. ولا تمكن مواجهة اللحظة الصعبة من دون التمسك بالثوابت، واستعادتها، ومحاولة فهمها اكثر، واستيحائها لاختراع سبل التجاوز والانبعث. تلك السبل التي يبحث عنها لبنان اليوم، ليس فقط في السياسة والاقتصاد، والصراعات الكبرى، بل في المخزون الروحي، وثوابت الهوية، وممارات الفكر والابداع.

هنا ننحني امام الياس الرحباني، وتركته الفنية العظيمة، بأوجهها كافة. نستعيد تجربة الاخ الثالث في المؤسسة الرحبانية الذي عرف كيف يشق طريقه على حدة، بشكل مواز للاخوين عاصي ومنصور، وان تقاطع معهما في محطات مهمة واساسية. نستعيد الالحان والاغنيات، وكل الحكايات والاسماء واللحظات التي احاطت بولادتها. لنستخلص العبر والدروس. لنكتشف ان الظروف لم تكن يوما سهلة كما يبدو لنا الآن حين ننظر الى التاريخ المنجز، بعد هبوط ستارة الفصل الاخير. كان على المبدع ان يواجه المصاعب والتحديات، وان يبحر عكس التيار، وان يؤسس لمساره المغاير.

تلك نفسها التحديات المطروحة اليوم امام شعب كامل. نعم، الموسيقى تختصر الحياة، والابداع تكثيف للتجربة الانسانية. لقد ودّعنا الياس الرحباني وعيننا على وطن ينبعث من رماد المرحلة، ويولد من الحانه واغنياته.

كان موسيقيا متواضعا من جيل الكرم والتواضع و"الادومة" الذين لم يبق منهم سوى حفنة اليوم. وباء كورونا، الذي حصد جملة من المبدعين اللبنانيين العام الماضي كالموسيقي بسام سابا والفنان مروان محفوظ، نال هذه السنة من صاحب النكتة والابتسام ورسول الفرح الذي زرعه في كل عمل حمل توقيعه.

س. م

اجراها مع قناة "الميادين" عام 2017، تحدّث عن مشروع قناة موسيقية وفنية وثقافية، متوقفاً عند حال الفن الذي بدأ بالتدهور في بداية التسعينات مع الموجة الغنائية التي جلبتها شركات انتاج ضخمة راحت تعمّم الفن التجاري على الذائقة الجمعية حتى افسدتها. كان يحلم ايضا بمسرحية مادا يده الى المنتجين اللبنانيين، معربا عن استعداده لتلحين تترات المسلسلات اللبنانية.

اغنية "ما احلاها"، كما سيدخل اذاعة لبنان كمخرج ومستشار موسيقي. هكذا، شق الياس دربه الخاص الذي تميّز بتنوع شديد وغزارة ابداعية. لطالما قال ان الالحان ترقص في رأسه طوال الوقت، حتى اللحظات الاخيرة من حياته، ظل يجلس في الاستديو الخاص به الكائن في الطبقة التي يسكن فيها، وينكب على اللحن والعمل. وحتى اللحظات الاخيرة ظل يحلم. في مقابلة

## هالة نهر: قوته في انسيابية موسيقاه



الباحثة والناقدة الموسيقية هالة نهر.

للتوقف عند قيمة ومستوى موسيقى الياس الرحباني، خصوصا بعد الجدل الذي تجدد مع رحيله واقامة المقارنات بين منتجه ومنتج الاخوين الرحباني، التقت "الامن العام" الباحثة والناقدة الموسيقية هالة نهر.

■ ما الذي يصنع الخصوصية الموسيقية للياس الرحباني بالنسبة إلى شقيقه وابناء جيله من الموسيقيين؟

□ ما يصنع خصوصية الياس الرحباني الموسيقية الرقي غالبا وعموما في اغنية البوب في امتدادها واختلافها وتنوعها التي تمكن من خلالها ان يعلق في اذهاننا وذاكرتنا حتى يومنا هذا. وهذا ليس بقليل، مواثما في الوقت عينه بين الشعبي الخفيف ذي المستوى المتأق وبين النخبوي في مناح وملاح منه. كما انه جمع ووازن ببراعة ومن دون تكلف بين المشرقي العربي والغربي بشكل انسيابي. وقد تميز بأسلوب السهل الممتنع الذي جُنح اعماله، والامثلة على ذلك كثيرة. نذكر بينها "دوبني الهوا" لغسان صليبا، "ياما سوا بفي الياسمينية" لجورجيت صايغ، و"عم بحلمك يا حلم يا لبنان" و"كل شي عم يخلص" لمأجدة الرومي، "يا سارق مني مكاتبني" لباسكال صقر، و"يا حبيب القلب"، و"رقصني دخلك يا حبيبي" لصباح، اضافة الى الاغاني الهائلة التي ادتها السيدة فيروز واضفت عليها بصوتها قيمة تاريخية استثنائية مثل "يا طير الوروار"، و"كنا نتلاقى من عشية"، وهناك "يا قمر الدار" لوديع الصافي، و"يا مارق عالتواحين" لنصري شمس الدين... هكذا نرى الياس الرحباني ملحنا يمتاز بالطلاقة والتنوع المهورين ببصمته.

■ دائما ما ينظر النقاد إلى نتاج الياس الرحباني على انه ادنى مستوى وقيمة فنية من نتاج اخويه، هل هذا صحيح؟

□ الناس عموما، المختصون منهم وغير المختصين، يميلون عمدا او لاشعوريا الى المقارنات الجامدة والظالمة احيانا بين الفنانين والوجوه والقامات. لهذا قارنوا ايضا بين الياس الرحباني والاخوان عاصي ومنصور. علما ان المقارنة لا تجوز، لأن عاصي ومنصور شكلا مدرسة وتيارا وظاهرة استثنائية فريدة وتاريخية لا تتكرر، حفرت آثارها في سجل الموسيقى العربية واللبنانية، والفن اللبناني والعربي بما يشتمل عليه من مسرح غنائي وسينما. الياس

ذلك اول عمل رسمي له بأجر بلغ 3900 ليرة لبنانية. بهذا المبلغ، سيشتري سيارة فيات زرقاء كما قال مرة، وسيخرج الى السينما مع الفتيات، قبل أن يتعرّف بزوجته نينا خليل (عام 1962) التي سيتزوجها خطيفة وكانت لا تزال في السادسة عشرة من عمرها، ثم ينجا ولديهما الموسيقيين غسان وجاد. عام 1962 كان مفصليا في مسيرته الابداعية، اذ انه سيعطي العملاق نصري شمس الدين

“  
في العشرين من  
العمر استدعته  
الاذاعة البريطانية”  
وتعاقدت معه على تلحين  
40 اغنية و 13 برنامجا

“

◀ مسقطهم انطلياس. بشق النفس نجح في شراء آلة بيانو وجلبا استاذين فرنسيين ليعلمنا شقيقهما الاصغر الموسيقى. طبعا، باقي البيوغرافيا معروفة: سيدرس الموسيقى في الاكاديمية اللبنانية (1945 - 1958) والمعهد الوطني للموسيقى (1955 - 1956). وفي العشرين من العمر (1958) استدعته "هيئة الاذاعة البريطانية" وتعاقدت معه على تلحين 40 اغنية و 13 برنامجا، فكان

## غسان الرحباني: اورثني التلحين و"الادومة"

توليت تلحين اغنية مكتملة بالانكليزية في وقت لم اكن اعرف حتى الانكليزية. وقد سجّلها والداي اولا على اسطوانة "ريل" ثم كاسيت وبعدها "سي. دي"، وما زلت احتفظ بها حتى اليوم على الكومبيوتر. هذا للقول بأن التلحين موهبة تأتي بالجينات. كنت في الرابعة من عمري. هناك والدي التي تكتب سيناريو، وقد انجزت سيناريوات افلام عدة في مصر ولبنان مثل افلام جمعت جورج شلهوب والسي فرنيي، والوالدي ايضا يكتب الشعر، وقد ورثت عنه كتابة الشعر المخصص للاغنية وايضا التوزيع. التوزيع الموسيقي مثل التلحين موهبة ايضا، الى جانب مسألة تعلمه طبعا. يمكن للمرء أن يتعلم كيفية التوزيع لفرقة موسيقية، كما التسجيل والعزف والغناء. لكن التلحين والتوزيع وكتابة الشعر تأتي بالفطرة. طبعا حين يصبح المرء ضليعا في اللغة، تتسع مخيلته ومعجمه ومرادفاته، فيصبح في امكانه الكتابة بشكل اعرق من ذي قبل، لأنه يصير فصيحاً وبلغياً في التعبير كتابيا. كل هذه الامور ورثتها عن والدي. اما انسانيا، فقد ورثنا الادمية، وهذا امر يعرفه الكل، اكانوا احبوا عملنا الموسيقي أم لم يحبونه. وهذه الصفة كلفتنا غالبا في لبنان، فهو ظل آدميا حتى الرمي الاخير، وقد علمنا مع والدي ان الكذب والنفاق في العمل وفي حياتنا اليومية مرفوضان تماما. كما علمنا طيبة القلب الزائدة احيانا. انا تعلمت لاحقا انه لا يمكنك ان تكون طيب القلب مع كل الناس، خصوصا بعدما شاهدت الثمن الباهظ الذي كلفته طيبة قلبه. ما زلت احتفظ بهذه الاصالة وحبّ الناس وادخال السعادة إلى الناس المحيطين بي، لكنني تعلمت مع العمر ان ذلك لا يمكن تطبيقه مع كل الناس. فوالدي اصيب بخيبات وحزن كبير بسبب طيبة قلبه وتعاطيه المتساوي مع كل الناس. اخيرا، اود ان ألفت هنا الى ان لا احد في جيل والدي تعلم التسجيل وليس فقط التوزيع، اي انه كان يسجل في الاستديو كمهندس صوت. تصوّر انه علمنا جاد وانا التسجيل على الكومبيوتر، وليس نحن الذي علمناه مع التقدم التكنولوجي. كان مواكبا للعصر بشكل مذهل من تسجيل اسطوانة "ريل" إلى الديجيتال وصولا الى التسجيل على الكومبيوتر. وهذه نقطة ملفتة لم ينتبه اليها احد.

التقت "الامن العام" الموسيقي غسان الرحباني، وطرحت عليه سؤالين عن والديه:

■ اخبرنا عن الياس الرحباني الاب؟

□ الياس الرحباني الاب هو والد حنون ووالد صديق. اذكر انه مذ كنا صغارا، وتحديدًا منذ ان بلغت عمر العاشرة صار يرفض ان اناديه "بابا". في الـ 12 تقريبا من عمري، صار يطلب مني ان اناديه "الياس"، قائلا لي: "انا صديقك". هذه كانت شخصيته، فهو يرفض صورة الاب الكبير في العمر، وفكرة ان الانسان يهرم ولا يعود شابا. لذا، ظل رمز الشباب الدائم كما كلنا يعرف، حتى في شكله الذي احتفظ برونقه وشبابه، وكانت نفسيته تشبه شكله الخارجي بشبابها الدائم. صرنا نكبر نحن فيما هو بدا كأن الزمن توقف في حالته، حتى صرنا انا واخي وهو كأننا أخوة ننتمي الى جيل واحد. مع ذلك، فقد اجتهد في تربيتنا عند اللزوم، لكن بطريقة غير قاسية. اذكر فقط انه ووالدي كانا دوما مستاءين مني لأن علاماتي المدرسية لم تكن جيدة.

■ ماذا ورث غسان الرحباني عن والده موسيقيا وانسانيا؟

□ موسيقيا، ورثت عنه مسألة التلحين. حتى قبل ان ادخل المدرسة



الياس وغسان الرحباني.